فصل من «مشكلة الحب»

ايروس (أو العشق)

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

لو تصفحنا أي كتاب عادي من كتب الحب، لوجدنا أن كلمة «ايروس» تستعمل عادة للاشارة الى الحب الجسدي ، في حين جرت العادة باستخدام كلمة «أجابيه» **Agapé** للاشارة الى الحب الروحي (١) . والاصل في هذا الاستعمال أن اليونانيين كانوا يجمعون بين « ايروس » اله الحب ، و « ديونسيوس » اله الخمر ، فكانوا يسرفون في الحب والشراب ، وكانوا يتخذون من الحب مطية الى الاستمتاع بمباهج الحب (٢) . ومن هنا فقد أصبح « الايروس » لفظا جنسيا يشير الى معاني العشق الحسي العنيف ، بدليل أن أصحاب علم النفس أصبحوا يستخدمون مشتقات هذا اللفظ للاشارة الى معان جنسية صرفة . ولما كان العرب قد خصصوا لفظ « العشق » للاشارة الى « مجاوزة الحد في المحبة » ، فقد آثرنا أن نسمي هذا النمط العنيف من الحب (أو الهوى) باسم « العشق » . ولكننا سنرى فيما بعد كيف استطاع أفلاطون أن يخلع على « الايروس » صبغة فلسفية، لكي يجعل منه أداة ناجعة لخدمة الحياة الروحية . وربما كان هذا هو السبب في تسمية الناس للحب السامي باسم « الحب الافلاطوني » ، ولو أن أفلاطون لم يتعرض لمسألة « العفة » في الحب ، بل هو قد انصرف بالاحرى الى تحديد مراحل « الجدل الصاعد » الذي يتنقل عبره الحب حتى يصل الى مثال الجمال أو « الجمال بالذات » .

ونحن نجد أن فدروس ــ أول المتحدثين في محاورة أفلاطون المسماة « **بالمأدبة** » (٣) ــ يسلم مع هزيود وغيره من الشعراء بأن ايروس اله عظيم من أقدم الالهة ، وأنه لم ينحدر عن أم ولا أب . وعندما ينهض أجاثون للكلام، نراه ينكر قدم هذا الاله ، لكي يؤكد أنه أصغر الالهة وأحدثها ، وان كان أجملها وأقدرها على هدايتنا . ثم يجيء دور سقراط في الحديث ، فنراه ينكر تماما الوهية ايروس ، لكي يجعل منه مجرد مساعد قدير أو موجه حكيم يستطيع أن يقتادنا الى الجمال الازلي المطلق .

وحجة سقراط في انكار الالوهية على ايروس أن الالهة تمتاز بصفتي السعادة والجمال ، في حين أن ايروس لا يتمتع بأية صفة من هاتين الصفتين. والواقع أن الحب في نظر سقراط انما هو ضرب من الشوق أو الرغبة في شيء يعدمه المرء ، ولما كانت الرغبة انما تعني الحاجة أو الافتقار ، فان الايروس يسعى نحو امتلاك الجميل، دون أن يكون هو نفسه جميلا . وان سقراط ليشرح هذا المعنى في حديثه الطويل ، فيقول انه ما من أحد يشتهي ما هو حاصل له : لان القوي لا يشتهي أن يكون قويا ، والغني لا يشتهي أن يكون غنيا ... الخ. وما دام من العبث أن يطلب المرء ما هو مالك له ، فان الانسان حين يشتهي شيئا يملكه ، انما يشتهي في الحقيقة استمرار حالة الامتلاك . والحب بهذا المعنى انما هو اشتهاء صادر عن الحرمان ، لان المحب يرغب في امتلاك موضوع بعيد عنه أو غير حاصل له . ولا بد للشيء الذي يشتهي شيئا اخر ان يكون مغايرا له ، فالايروس مثلا حين يشتاق الى الجميل ، انما يشتاق الى شيء هو غير مالك له ، والا لما رغب في الحصول عليه . ولهذا ينكر سقراط وصف أجاثون للايروس بأنه جميل ، ويقرر انه ما دام الايروس يطلب الجمال ويسعى نحو امتلاكه، فانه ليس في وسعنا أن نضفي عليه صفة الجمال . هذا الى أن « الخيِّر » ــ في رأي سقراط ــ هو في الوقت نفسه « الجميل » ، فاذا كان الايروس يفتقر الى الجمال ، فهو يفتقر بالتالي الى الخير أيضا ، ما دام كل جميل خيِّرا، والعكس بالعكس .

ولكن ، اذا كان سقراط قد أنكر الالوهية على ايروس ، فهل يكون معنى هذا ان «الحب» بائد قد كتب عليه الفناء ؟ هذا ما يجيب عليه سقراط بقوله ان الحب جنيٌّ عظيم أو روح كبير يحتل منزلة وسطى بين الالهة والبشر ، فهو ليس خالدا ولا فانيا ، وهو ليس حكيما ولا جاهلا ، وهو ليس خيرا ولا شريرا ، وهو ليس جميلا ولا قبيحا ، وانما هو في مرتبة وسط بين الخلود والفناء، بين الحكمة والجهل ، بين الخير والشر ، بين الجمال والقبح. وهنا يلجأ سقراط الى اصطناع الاسطورة، فيروي لنا تاريخ ميلاد ايروس ، ويقرر أن ذلك قد تم ليلة مولد أفروديت . وخلاصة هذه الاسطورة أن الالهة قد شاءت أن تحتفل بميلاد أفروديت ، فأقامت وليمة كبرى كان من بين الذين حضروها بوروس **Poros** (أو الغنى) . وبعد العشاء ، رأت بنيا **Penia** (أو الحاجة) تلك المأدبة ، فجاءت تستجدي ، ووقفت الى جوار الباب . وكان بوروس قد سكر لفرط ما شرب من الرحيق ، فخرج الى حديقة زيوس ، وغط في نوم عميق ! ولمحته بنيا فشاءت أن ترزق منه ، مدفوعة الى ذلك بما كانت عليه من فقر وعوز . ومن هنا فقد رقدت بنيا الى جوار بوروس ، ونشأ من تزاوجهما ايروس ! ونظرا لان عملية حبل بنيا قد تمت ليلة مولد افروديت

(١) Cf. Morton M. Hunt : « The Natural History of Love » , London , 1962 , p. 19.

(٢) د. أحمد فؤاد الاهواني : «أفلاطون» (مجموعة نوابغ الفكر الغربي) دار المعارف ، ١٩٥٨ ، ص ٥٥ .

(٣) « المأدبة » **Le Banquet** (كما نعلم) هي احدى المحاورات الهامة التي عالج فيها أفلاطون موضوع الحب والجمال .

نفسها ، فقد نشأ ايروس محبا للجمال ، حتى انه لم يلبث ان أصبح خادما لافروديت ورفيقا لها . ونظرا لان ايروس قد كان ثمرة لتزاوج الغنى والفقر ، أو الثراء والحاجة ، فقد ورث عن أمه بنيا الفقر والجهل والضعة ، كما ورث عن أبيه بوروس الغنى والحكمة والشجاعة (٤).

بيد أن ايروس مع ذلك ليس حكيما، وانما هو فيلسوف أو محب للحكمة ، بمعنى أنه يحتل منزلة وسطا بين الحكمة والجهل . وليس من شك في أن الذي يعلم هو في غير ما حاجة الى البحث ، فان البحث يفترض الجهل مع الرغبة في المعرفة . ولما كان الالهة حكماء، فانهم لا يتفلسفون ، اذ لا حاجة بهم الى البحث عن الحكمة. وكذلك الجاهل ، فانه يحسن الظن بنفسه ، ومن ثم فانه لا يتطلب الحكمة . وانما يتفلسف ذلك الذي يشعر بالحاجة الى الحكمة ، أعني ذلك الذي يحس بجهله، مع ميله في الوقت نفسه الى كل ما هو جميل وخيِّر. ولما كانت طبيعة ايروس تجمع بين الجهل والحكمة، فقد تعين ان يكون الحب فيلسوفا أو محبا للحكمة. وبيت القصيد في كل حديث سقراط هو أن ايروس ليس **بالمحبوب** بل هو **المحب** . والخطأ الذي وقع فيه الواهمون بأن ايروس هو المحبوب ، أنهم قد اعتبروه جميلا غاية الجمال ، في حين أن ايروس ليس سوى « المحب » ، بينما المحبوب في الحقيقة هو الجمال المطلق ، والكمال الاسمى ، والخير الاقصى . وبهذا المعنى تكون طبيعة الحب ثنائية : لان الحب من ناحية حاجة وعوز وافتقار، ثم هو من ناحية اخرى نزوع نحو الخير والجمال والكمال. ومن الناحية الاولى ينتسب الحب الى عالم الظلال ، في حين أنه من الناحية الثانية يندرج في معراج « العالم المعقول » أو الملأ الاعلى . وهنا يظهر الطابع الخاص المميز « للايروس » بوصفه على النقيض تماما من « الاجابيه » : فان الايروس بطبيعته افتقار أو « عدم امتلاك » يحن الى الامتلاء أو الامتلاك . واحساس الايروس بالحاجة انما هو الباعث الذي يهب الديناميكية لرغبته أو اشتياقه.

ولعل هذا ما عبر عنه الفيلسوف الالماني زمّل Simmel حينما كتب يقول : « ان الايروس اليوناني هو ارادة امتلاك ، حتى حين يستخدم الحب للاشارة الى معنى أسمى ، الا وهو الرغبة في امتلاك الشخص المحبوب كموضوع للتعليم المثالي ، والتهذيب الاخلاقي ، والتربية الثقافية . وهذا هو السبب في أن الحب عند اليونان انما هو حالة متوسطة بين الامتلاك وعدم الامتلاك ، وانه بالتالي لا بد من أن يموت حينما يكون هدفه قد تحقق » (٥).

ويمضي أفلاطون في حديثه عن الحب فيقول أنه لما كان كل من يرغب ، انما يرغب فيما هو محروم منه، أو يشتهي ما هو مفتقر اليه ، فقد ترتب على ذلك ألا يكون هناك « حب » بالنسبة الى الالهة ، ما دامت الالهة لاتفتقر الى شيء ، ولا ترغب في شيء ! ومعنى هذا أن الآلهة ليست في حاجة الى حب الناس لها ، ما دامت الالهة غارقة في سعادتها وكمالها . واذا كان لنا أن نستخدم لفظ « ايروس » للاشارة الى الحب الالهي ، فلا بد لنا من أن نتذكر أن هذا الحب هو بأكمله من جانب الانسان، دون ان يكون في وسع الله ان يبادل الانسان حبا بحب! ومن هنا فان « الحب الالهي » حينما يتخذ النمط « الايروسي » انما يصبح بمثابة سبيل يقتاد الى الله ، دون أن يكون هناك بأي حال من الاحوال أي هبوط أو نزول من جانب الله نحو الانسان . وليس بدعا ان يكون الانسان هو المحب دائما ، وان يكون الله هو المحبوب دائما : فان الله (كما قلنا) متمتع منذ البداية بأقصى حد من الكمال والسعادة ، في حين أن الانسان لا يمتلك شيئا منهما ، ومن ثم فان موضوع حبه هو السعادة . والحق أننا لو تساءلنا : « ماذا يحب العاشق في الشيء الجميل الذي يعشقه ؟ » ، لكان الجواب حتما « انه بلا ريب يحب امتلاك هذا الشيء الجميل » . فاذا عاودنا السؤال: « ماذا ينفع امتلاك الاشياء الجميلة ، أو ما الفائدة التي تعود علينا من وراء امتلاك الاشياء الطيبة ؟ » ، كان الرد بلا شك : « أن الانسان يحب امتلاك الجمال أو الخير، لان من يمتلك الخير لا بد من أن يظفر بالسعادة » . وهنا قد يكون من العبث أن نتساءل لماذا يطلب الانسان السعادة، اذ أن الاجابة عن هذا التساؤل متضمنة في صميم السؤال نفسه (٦) .

ولكن ، اذا كان البشر قاطبة يتطلبون السعادة، ويريدون الظفر بالخير أو الحصول على الجمال ، فلماذا لا نقول انهم جميعا « محبون » ، ما دام حب الخير أو الشوق الى الجمال مشتركا بينهم ؟ لماذا نقول عن البعض انهم « يحبون » ، بينما نقول عن البعض الاخر انهم لا يعرفون الحب ؟ هذا ما يجيب عليه أفلاطون بقوله : اننا اعتدنا أن نطلق اسم « الحب » على نوع خاص منه، بينما أصبحنا نسمي غيره من الانواع بأسماء أخرى . والحال بالنسبة الى كلمة « الحب » كالحال بالنسبة الى الكلمة اليونانية « poiesis » التي أصبحنا نستخدمها للاشارة الى فن الشعر ، في حين انها كانت تعني في الاصل أي ضرب من ضروب « الابداع الفني » ، سواء أكان تصويرا أم نحتا أم موسيقى أم غير ذلك .. ومن هنا فاننا لم نعد نسمي جميع الفنانين باسم الشعراء ، بل أصبحنا نقصر لفظ « الشاعر » على من يزاول فن النظم والايقاع الموسيقي. وهكذا الحال أيضا بالنسبة الى « الحب » : فان المعنى العام لهذه الكلمة هو الرغبة المطلقة في الخير أو النزوع نحو السعادة . ولكننا لا نقول عن كل من يلتمس هذه الغاية شتى الوسائل ، سواء أكان رجل أعمال أو لاعبا رياضيا أو محبا للمعرفة ، انه عاشق أو محب، وانما نحن نقصر استعمال هذا اللفظ على طائفة معينة من الناس تسلك طريقا خاصا في الحب ، وتمارسه بجد وانكباب، وتلك هي طائفة « العشاق » أو « المحبين » بالمعنى الخاص لهذه الكلمة .

فهل نقول مع الشاعر اليوناني أرستوفان ان المحبين قوم يبحثون عن نصفهم الاخر ؟ هل نسلم معه بأن كل واحد منا هو نصف ناقص لواحد كامل قد فصل عنه ، وأن غاية كل منا انما هي البحث عن نصفه الاخر من اجل الاتحاد به؟ هذا ما يجيب عليه سقراط بالنفي ، فان الحب في رأيه

(٤) Platon : « Le Banquet », 203. (وانظر أيضا كتاب ليون روبان عن الحب الافلاطوني :

Léon Robin : « La théorie platonicienne de l'amour » 1908, pp. 48 - 52.

(٥) Cf. M.C.D'Arcy : « The Mind and Heart of Love » . N-Y, 1956, p. 71.

(٦) Platon « Le Banquet », 204.E. . وانظر أيضا ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الاهواني لهذا النص في كتابه « أفلاطون » (مجموعة نوابغ الفكر الغربي) ، النصوص المختارة ، ص ١٧٧ .

لا يبحث عن النصف أو الكل ، اللهم الا اذا كان هـذا النصف أو الكل طيبا أو خيرا بوجه ما من الوجوه. وآية ذلك ان الناس يرتضون أن تقطع أيديهم أو أرجلهم اذا اعتقدوا أنها أعضاء فاسدة . وهم اذا كانوا يتمسكون بما يملكون ، فليس ذلك لمجرد أنه ملك خاص لهم ، بل لانهم يعتبرون ان الشيء الخير ملتصق بطبيعتهم مملوك لهم، في حين أن الشيء السيء غريب عنهم طارىء عليهم . وتبعا لذلك فان الناس لا يحبون الا الخير ، أو ما يعتقدون هم أن فيه خيرا لهم . وهم يحبون أيضا ان يكون الخير ملكا لهم ، وأن يكون امتلاكهم له على الدوام . واذن فان الحب ـ على حد تعبير سقراط ـ هو الرغبة في اقتناء الخير بصفة مستديمة ، أو هو النزوع نحو امتلاك الجميل امتلاكا أبديا خالدا (٧) .

ويعود سقراط فيعرّف الحب بأنه « **ولادة في الجميل بدنا وروحا** » . وكل انسان منا (في رأيه) قدير على التناسل جسميا وروحيا ، لانه يستطيع أن ينجب نسلا ، كما يستطيع أيضا أن ينجب نسلا ، كما يستطيع أيضا أن يبدع عملا . وحينما يصل المرء الى سن معينة، فان طبيعته تدفعه الى اشباع غريزة التناسل . ولكنه لا يستطيع أن يشبع هذه الغريزة عن طريق الاتصال بالدميم أو القبيح ، بل هو مضطر الى اشباعها عن طريق الاتصال بالجميل أو المليح . وعلى الرغم من ان الحبل فعل انساني صرف يتم بتلاقي الرجل والمرأة ، الا أن عملية التكاثر لدى الانسان تتسم بطابع مقدس أو صبغة الهية . فالحمل والوضع لدى الموجود البشري عملان فانيان ، ولكن التكاثر (على العكس) عمل خالد عليه مسحة من الابدية . وليس هناك أي تناسب بين القبح والالوهية، فلا غرو أن يكون الجمال باعثا على التكاثر (الذي هو عمل الهي مقدس) . ومعنى هذا ـ بعبارة أخرى ـ أن الجمال هو الاله الذي يتحكم في مصير الحب، والتناسل، وتخليد النوع البشري . وحينما يدنو الموجود المليء بمادة التلقيح من الموجود الجميل ، فانه يمتلىء سرورا ويفيض لذة ، ومن ثم فانه يشرع في التلقيح ، وينجح في اخصاب شريكه . وأما حين يدنو من الموجود الدميم ، فانه ينقبض حزنا ، ويقبض بالتالي مادة اللقاح عن الموجود القبيح، فلا تتحقق عملية الاخصاب . وأما الشخص المخصب المليء بمادة اللقاح ، فانه يكاد يفيض أو يطفح من شدة الرغبة ، ومن ثم فان اندفاعه نحو الجميل يكون عنيفا عارما، خصوصا وأنه يستشعر ألما شديدا حين يمتنع عن اشباع رغبته في التناسل . وهكذا يصحح سقراط مرة اخرى من تعريفه للحب ، فيقول انه ليس على وجه الدقة مجرد شوق الى الجمال ، بل هو نزوع نحو التكاثر أو رغبة في التناسل تثور في النفس تحت تأثير مشاهدة الجميل.

واذا كان الانسان أحرص ما يكون على التناسل ، فذلك لأن تكاثر النوع هو الذي يكسبنا خلودا أو بقاء في هذه الحياة الدنيا الفانية . ومن هنا فقد يكون في وسعنا أن نقول أن الحب ليس مجرد شوق الى الخير ، أو رغبة في اقتنائه ، بل هو تطلب لاستمرار هذا الخير ، ورغبة في تملكه بصفة مستديمة . وشوقنا الى الدوام او الخلود قد لا يقل عن شوقنا الى الكمال او الخير. واذن فان الحب « شوق الى الخلود » . ولو أننا تساءلنا عن الاصل في هذا الشوق أو العلة في هذه الرغبة ، لوجدنا أن ثمة غريزة تدفع بالكائن الحي عموما الى العمل على استمرار بقائه، والمحافظة على نوعه . فنحن نشاهد مثلا لدى الطيور والحيوانات أنها تحاول اولا ان تشبع غريزتها الجنسية، ولكنها ما تكاد تلد صغارها ، حتى تشرع في العمل على توفير الغذاء لنسلها الجديد بكل صبر وجهاد ومشقة. وقد لا يتردد الحيوان في محاربة غيره ـ ضعيفا كان أم قويا ـ من أجل الحصول على القوت الضروري لصغاره ، حتى انه قد يتحمل مرارة الجوع أو الحرمان هو نفسه في سبيل اشباع نسله ، أو قد يؤثر الفناء على ترك صغاره فريسة للجوع. وانما يفعل الحيوان كل هذا تحت تأثير غريزة المحافظة على البقاء : فان الطبيعة الفانية تسعى ـ بقدر الامكان ـ نحو الخلود ، وهي تصطنع أساليب متنوعة في سبيل العمل على استمرار بقاء النوع . ولما كان الموجود الفاني يحاول جاهدا بلوغ حالة الخلود، فليس بدعا أن نراه يقبل على التناسل ، لكي يضمن عن طريقه ظهور جيل جديد يحل دائما محل الجيل القديم ! وهذا أيضا ما يفعله السواد الاعظم من الناس ، فانهم يحبون ويتزاوجون وينجبون أطفالا ، حتى يضمنوا لانفسهم ضربا من الاستمرار أو الخلود عن طريق أبنائهم وأحفادهم من بعدهم .

أما اذا قيل ان حب المجد هو الدافع الاكبر الذي يحدو الكثيرين الى القيام بجلائل الاعمال ، كان رد أفلاطون أن الرغبة في الخلود وبقاء الذكر انما تكمن أيضا من وراء شتى أعمال البطولة . فكل أبطال اليونان الذين سجل التاريخ أسماءهم لم يقدموا على أعمالهم الجليلة الا تحت تأثير حبهم للخلود، ورغبتهم في بقاء الذكر . وكما ان العامة من الناس انما ينشدون الخلود عن طريق « التناسل البدني » (اذ ينجبون من الابناء ما يضمن لهم الخلود)، فان الممتازين من المواطنين انما ينشدون الخلود عن طريق «التناسل الروحي» ـ من شعراء وفنانين ومحبي حكمة ـ يضمنون لانفسهم الخلود عن طريق ما يذيعون بين الناس من حكمة وفضيلة . وربما كانت أسمى صورة من صور الحكمة تلك التي تنتظم بها حياة الاسر ، ويستقيم بها نظام المجتمع ، أعني الاعتدال والعدل . ولا نزاع في ان « التناسل الروحي » أسمى بكثير من «التناسل الجسمي»، فقد بقيت أسماء هوميروس وهزيود وصولون وغيرهم خالدة في سجل التاريخ ، بسبب ما حققوه من اعمال رائعة وفضائل جميلة أملاها عليهم خصبهم الروحي ، فشيدت لهم المعابد ، وأقيمت النصب لنسلهم الروحي ، بينما بقي نسلهم الادمي خامل الذكر ...

من هذا يتبين لنا أن للحب في نظر أفلاطون اتجاهين مختلفين : اتجاها زمانيا أفقيا تعبر عنه الرغبة في توليد الاجسام لخدمة المجتمع ، واتجاها أبديا رأسيا تعبر عنه الرغبة في توليد الارواح من أجل التسامي بها نحو الله . واذا كانت أفروديت الارضية (أو الشعبية) هي التي تهتم بالتناسل أو تخليد النسل ، فان افروديت السماوية (او الالهية) هي التي تأخذ بيدنا من اجل مساعدتنا على التفلسف . وليست الصلة معدومة تماما بين هذين الاتجاهين المختلفين للحب ، فان الايروس كما رأينا ينزع نحو الخلود في كلتا الحالتين ، سواء أكان غرضه التناسل أم التصاعد . هذا الى أن عمل الفيلسوف الذي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٠ ـ

(٧) Platon : « Le Banquet » , 206. (وانظر أيضا «افلاطون» للدكتور أحمد فؤاد الاهواني ، ص ١٨١ ـ ١٨٢) .

ايروس ((أو العشق))

ـ التتمة على الصفحة ٥٠ ـ

يولد النفوس عن طريق التربية لا بد هو الاخر من أن يبدأ بحب الاجساد الجميلة . وهنا يقرر أفلاطون أن على الشخص الذي ينشد الحكمة أن يبدأ منذ صباه بتأمل الاجسام الجديرة بالحب ، لكي لا يلبث أن يقصر حبه على جسم واحد منها فقط ، فيرتبط به ويعقد معه الاحاديث التي تؤدي الى الفضيلة . ولكن عليه بعد ذلك أن يعرف أن الجمال الموجود في جسم ما انما هو صنو للجمال الموجود في أي جسم اخر . ومن هنا فان عليه أن يرد كل ما في الطبيعة من جمالات متفرقة الى ضرب واحد من الجمال يضمها جميعا ألا وهو الجمال المحسوس ، وهو اذا فعل هذا ، فسيكون في وسعه عندئذ أن يتخلص من التعلق بجمال واحد ، لكي يعجب بجمال الصور أينما تألق أمام ناظريه .

وحينما يفطن السالك في طريق الحب الى أن ما يخلع على الاشكال الجميلة حسنها انما هو كونها تعبر عن صفات النفس في صميم المادة ، فهنالك نراه يتدرج من التعلق بجمال الاجساد الى التعلق بجمال النفوس . فاذا وجد نفسا جميلة في غلاف دميم ، لم يمنعه ذلك من التعلق بصاحبها ، بل يجتمع به ، ويتخذ منه رفيقا له ، ويهتم بتهذيبه وتعليمه ، حتى يصلح من حداثته . وحينما يدرك السالك أن جمالا واحدا بعينه هو الذي يجعل النفوس الجميلة جديرة بالحب ، فانه عندئذ سرعان ما يتحقق من أن ثمة جمالا معنويا هو الذي يجمع بين شتى النفوس الجميلة . فاذا ما انتهى الى هذه الدرجة كان عليه أن يصعد الى جما ل النظم والقوانين ، فالى جمال العلوم النظرية ، حتى يقف على جمال كل ضرب من ضروب المعرفة . وهكذا يتسنى للسالك ان يتحرر من عبودية التعلق بجمال فتى بعينه ، أو جمال رجل بعينه ، أو جمال نظام بعينه ، لكي يتجه بكل انظاره نحو محيط الجمال الشاسع ، فلا يلبث ان يجد في مثل هذا التأمل بذور الحكمة التي قد تمكنه فيما بعد من أن يجتنى ثمار المعرفة الحقيقية .

ولا يزال السالك ينتقل من جمال الى جمال، ويصعد من علم الى علم ، حتى ينتهي في خاتمة المطاف الى رؤية الجمال الكلي الثابت ، ذلك الجمال الازلي المطلق الذي هو الغاية القصوى لكل من الفكر والعاطفة . وعندئذ نراه يتوقف لكي يتأمل ذلك الجمال العجيب الذي تكبد كل هذه المشاق في سبيل الوصول اليه . وكيف لا تقف النفس مذهولة أمام هذا الجمال الفريد ، وهي تشاهد امامها جمالا أزليا لا يعتريه كون أو فساد ، ولا يطرأ عليه تزايد أو نقصان ، ولا يمكن اعتباره جميلا من جهة ودميما من جهة اخرى ، أو جميلا في وقت وغير جميل في وقت اخر ، أو جميلا في مكان أو زمان وقبيحا في مكان اخر أو زمان اخر .. الخ ؟ « ايه يا عزيزي سقراط ! ان الشيء الوحيد الذي يخلع على هذه الحياة قيمتها انما هو ذلك المشهد : مشهد الجمال الازلي الابدي . وأي شيء يمكن ان يكون اعظم من مصير هذا الانسان الفاني لو قدر له ان يشاهد الجمال الذي لا تشوبه شائبة ، الجمال في صفائه ونقائه وبساطته ، الجمال الذي لا يكسوه لحم، ولا تغطيه ألوان وأشكال مصيرها الى الفناء ، أي مصير يمكن ان يكون أعظم من مصير هذا الانسان ، وقد اتيح له أن يشهد ـ في صورته الفريدة ـ ذلك الجمال الالهي، وجها لوجه ؟ » (٨) .

... بهذه النغمة الصوفية الرائعة ، اختتم أفلاطون في مأدبته المشهورة سيمفونيته الخالدة في « الحب » . واذا كنا قد توقفنا طويلا عند النظرية الافلاطونية في « الايروس » ، فليس ذلك لما لها من أهمية كبرى في تاريخ مشكلة الحب فحسب ، بل لانها تبرز لنا ايضا بشكل ظاهر نمطا خاصا من أنماط الحب . وأول ما نلاحظه في هذا الصدد ان افلاطون لم يتعرض في كل أحاديثه عن الحب لموضوع الزواج أو لمشكلة المرأة . واذا كان افلاطون قد اهتم بالحب ، فما ذلك لاهتمامه بالاسرة أو بالحياة الزوجية، بل لانشغاله بالدولة، واهتمامه بالحياة الروحية، وعنايته بتحديد الوسائل التي توصل العقل الى أعلى درجة من درجات المعرفة . ومن هنا فان افلاطون لم يهتم بالحب في ذاته بقدر ما اهتم بالذبذبات التي يحدثها الحب في النفس ، والنفحات التي يجود بها على الروح في سعيها نحو الكمال الاسمى . واذا كان افلاطون قد جعل من الحب « روحا » أو « جنيا » **démon** ، فما ذلك الا لانه قد فطن الى ان « الايروس » وسيط بين البشر والالهة ، أو هو واسطة يتحقق عن طريقها « الوجد » أو « الانجذاب الصوفي » . وتبعا لذلك فان الموجود المحبوب لا يخرج عن كونه مجرد مناسبة أو واسطة أو منبه يدفع بالنفس نحو البحث عن سعادة أكبر ، وكأنما هو يدعوها الى ان تتجاوزه ، وتعلو عليه ، حتى لا تبقى أسيرة لحضرته الحسية أو وجوده الطبيعي . فالمحبوب ـ في الفلسفة الافلاطونية ـ هو مجرد شرارة تولد نار الحب ، لكي لا تلبث هذه النار أن تؤرث نفسها بنفسها ! وهذا هو السبب في أن افلاطون لم يوجه اهتماما كبيرا الى صفات الفرد الذي يثير الحب ، فضلا عن أنه قد واجه مشكلة جنس المحبوب بشيء من عدم الاكتراث . ولا غرو ، فان الكائن المحبوب لا يوجد الا لكي يعلى عليه ، وكأن الحب الافلاطوني هو « الجدل » (أو الديالكتيك) نفسه ، بشرط أن نفهم من «الجدل» أنه عملية وصول مصحوبة دائما بعملية انتقال أو صعود : ألسنا نجد الحب الافلاطوني ينتقل من حب الاجساد الجميلة الى حب النفوس الجميلة ، ثم من حب النفوس الجميلة الى حب المعارف الجميلة ، حتى ينتهي في اخر المطاف الى حب « الخير الاسمى » الذي لا شكل له ولا صورة ؟

بيد أننا لن نستطيع أن نفهم نظرية أفلاطون في الحب، اللهم الا اذا ربطناها ربطا وثيقا بنظريته في المعرفة. ونحن نعرف كيف أن المعرفة عنده لا تنحصر في تعقل المعنى الكلي عن طريق ادراك الفكر للحقيقة الجزئية او الواقع الفردي ، بل هي تنحصر في استخلاص الماهية البحتة المجردة ، مع اغفال العناصر الحسية ، والفردية، والتاريخية . ولنضرب لذلك مثلا فنقول اننا حينما ندرك « الوردة » ، فان ما ندركه ليس هو تلك العناصر الجزئية المتغيرة التي تزول في مجرى الصيرورة ، بل نحن ندرك « الوردية » باعتبارها صورة عامة تكمن في عالم أزلي

(٨) **Platon : « Le Banquet », 211 - 212.** (وانظر ايضا « **الحب الالهي** » للدكتور مصطفى حلمي ، دار العلم ، ١٩٦٠ ، ص ٧٢).

معقول هو « عالم المثل » ! وهكذا الحال ايضا بالنسبة الى الحب ، فان ما أحبه في هذا الموجود الجميل الذي أتعلق به ليس هو تلك الصورة الزائلة التي ينطوي عليها شخصه الجزئي (أو الفردي) ، بل هو « مثال الجمال » على نحو ما يتجلى فيه ، أو على نحو ما يهيؤني هو نفسه لان أراه ! وتبعا لذلك فان الشخص المحبوب لا يحب مطلقا في ذاته ، أو لذاته ، بل هو يحب باعتباره ماهية لا شخصية ، أو بقدر ما يشارك في ذلك المثال الاسمى الازلي الابدي ، ألا وهو مثال الجمال . ومن هنا فقد بقيت الفلسفة الافلاطونية عاجزة عن تبرير وحدة الموجود ، أو تفسير بساطة الحب الحقيقي ، كما لاحظ المفكر الفرنسي المعاصر جان جيتون (٩)

حقا ان أفلاطون لم يغفل في حديثه عن الحب عناصر الخبرة الاولية بأشكالها البيولوجية والاجتماعية ، وبالتالي فانه قد جعل من الحب غريزة فطرية تخدم أغراض الجماعة ، ولكنه لم يبين لنا في هذا الصدد وجه الفارق بين التكاثر الحيواني الصرف والتناسل البشري في صورته الاجتماعية المنظمة . ومن هنا فان حديثه عن « الحب » من حيث هو وسيلة للتكاثر لم يمتد بأي حال الى دراسة الاسرة وبيان دور الحب في حياة الشخص ، بل هو قد وقف عند حدود المدينة أو الدولة . ومن العجيب أن أفلاطون الذي أجرى على ألسنة شخصياته المتعددة في محاورة « المأدبة » أحاديث متنوعة عن الحب (من وجهات نظر مختلفة : طبية ، وسوفسطائية ، وشعرية ، واخلاقية ، وبيولوجية ، واجتماعية وفلسفية ... الخ) لم يستطع مع ذلك أن يجرد الحب من طابع « التمركز الذاتي » ، فبقي الايروس عنده صورة من صور حب الذات . ولعل هذا هو السبب في أن الايروس الافلاطوني قد أصبح علما على نوع خاص من الحب ، ألا وهو « الحب المركزي الجاذب » . centripète ، لا « الحب المركزي الطارد » centrifuge (كما هو الحال في الاجابيه) . ولئن كان أفلاطون قد أعلى من شأن الحب حين جعل منه واسطة للخلاص ، أو شوقا أرستقراطيا يدفع بالذات البشرية الى التسامي نحو المقام الالهي ، الا أنه قد تصور الحب على أنه فعل الكائن الناقص ، ما دام الحب اشتهاء صادرا عن حرمان ، وما دام من المستحيل علينا أن نحب حينما لا تكون بنا حاجة أو شعور بالحرمان . وسواء أكان موضوع الحب عند أفلاطون هو الله أو الخليقة ، فان طابع الحب عنده باستمرار هو طابع الحرمان والشوق والاشتهاء ، لا طابع الاستقرار والامتلاك والوفاء . ولهذا فانه لا غرابة على الاطلاق في أن يكون لفظ « الزوجة » هو اللفظ الوحيد الذي لم يرد على لسان أفلاطون في كل أحاديثه المتنوعة عن الحب . هذا الى أن أفلاطون — كما لاحظ نيجرن : Nygren لم يستطع مطلقا أن يتصور حبا تلقائيا غير مسبب ، فليس بدعا أن نراه يتحدث عن صعود الانسان نحو الله ، دون أن يخطر على باله أنه قد يكون هناك أيضا هبوط من جانب الله نحو الانسان (١٠) .

وأما لدى الفيلسوف اليوناني أفلوطين — زعيم مدرسة الاسكندرية — فسنجد محاولة جديدة من أجل التوفيق بين جدل الحب الصاعد ، وجدل الحب الهابط ، عن طريق فكرة السلم الالهي الذي يسمح بالصعود والهبوط معا . ومن هنا فان افلوطين لم يقتصر على القول مع أفلاطون بأن هناك صعودا من جانب الانسان نحو الله ، دون أن يكون هناك أي هبوط من جانب الله نحو الانسان ، بل هو قد أضاف الى ذلك أن الكل قد صدر عن الواحد ، وأن الصدور هو في صميمه ضرب من الهبوط . وعلى حين أن افلاطون كان يرى ان الايروس هو حب الانسان لله ، وأنه لا يمكن نسبته الى الله ، نجد أن أفلوطين يقرر بصريح العبارة : « ان الاعلى يهتم بالادنى ، ويعمل على تزيينه » . (التاسوعات ، ٤ ، ٨ ، ٨) . وهذه الفكرة التي ظهرت لاول مرة في تاريخ التفكير اليوناني لدى أفلوطين ستتردد من بعد عند جماعة الاباء المسيحيين والمشتغلين بعلم اللاهوت ، خصوصا وأن فكرة السلم السمائي (أو الالهي) التي أقترنت بنظرية أفلوطين في الايروس ، قد أغرت المدافعين عن العقيدة المسيحية باستخدامها في تقريب فكرة « الحب المسيحي » الى أذهان الناس . ومن هنا فقد امتزجت لغة « الايروس » بلغة الاجابيه » لدى آباء المسيحية الاوائل ، في حين أن الفارق شاسع (كما سنرى) بين الحب اليوناني والمحبة المسيحية (١١) .

والحق أن « الايروس اليوناني » لم يكن يعني المشاركة المتبادلة بين شخصين ، بل كان يعني الهوى الجامح الذي يذيب فردية العاشق في حالة من الاتحاد الصوفي مع المطلق أو الاله . ومن هنا فان المحب لم يكن يتوقف عند « محبة القريب » ، بل كان يمضي مباشرة نحو الحقيقة الالهية ، آملا أن يكسب ذاته صبغة الهية ، وكأن عشقه في الحقيقة حلقة دائرية تبدأ منه لكي ترتد اليه! ولعل هذا هو السبب في أن كثيرا من المفكرين الذين تحدثوا عن الحب في العصور الوسطى المسيحية قد اعتبروه ضربا من الاستغراق في الجمال الازلي ، وكان الاتحاد بالله هو صورة من صور الخبرة الجمالية ! ولا نرانا في حاجة الى القول بأن هذا التصور الجمالي للحب انما يرتد الى الفهم اليوناني للايروس ، ما دام الحب — كما رأينا عند أفلاطون — هو مجرد وسيلة للتصاعد أو التسامي أو بلوغ الكمال المطلق .. واذا كان البعض قد اعتبر « الحب الرومانتيكي » صورة أخرى من صور الحب اليوناني أو الايروس ، فذلك لان هذا الحب قد تجلى على صورة هوى عنيف لا يقوم على التبادل أو المشاركة بقدر ما يقوم على التمركز الذاتي وحب الحب ! وكما بقي الايروس اليوناني خارج أسوار الزواج ، فقد بقي الحب الرومانتيكي أيضا متحررا من سائر قيود الزوجية !

ولنحاول الان أن نلقي نظرة سريعة على هذه الصورة الرومانتيكية للايروس ، حتى نفهم كيف استطاعت هذه الصورة أن تؤثر على العقلية الاوروبية خلال أجيال طويلة ، على الرغم من انتشار المسيحية في ربوع أوروبا ، بفكرتها الخاصة عن الاجابيه أو الحب المسيحي . وهنا نجد ان الاصل في ظهور هذه الصورة هو قصة ترستان وايزو Tristan et Yseult التي عمل على نشرها جماعة التروبادور وشعراء الغزل في العصور الوسطى (١٢) . وتتلخص هذه القصة في أن ترستان كان يعمل فارسا في

(٩) J. Guitton : « L'Amour Humain » , Aubier, Paris, 1948, pp. 30-31.

(١٠) M. Nédoncelle: « Vers une Philosophie de l'Amour ». Paris, Aubier, 1957, Nouvelle Edition, f. 22.

(١١) M.C. D'Arcy : « The Mind and Heart of Love ». N.Y., 1956, p. 73.

(١٢) Cf. D. dé Rougemont : « L'Amour et L'Occident », Paris, Plon, 1939.

بلاط الملك مارك . ولما كان قد أقسم على الولاء للملك ، فان قوانين الفروسية كانت تقتضيه أن يقوم بأداء بعض الواجبات نحو الملك ، باعتباره سيده الاقطاعي الذي لا بد من أن يدين له بالطاعة والولاء . وقد كان ترستان بالفعل وفيا بالعهد في كثير من المناسبات ، فكان يأتي الكثير من أفعال البطولة ، ولكنه كان يخون سيده في مناسبات أخرى ، فكان يحنث بيمينه ويعتدي على شرف سيده. والكاتب يصور لنا ترستان بصورة الضحية التي تعمل بوحي من مصيرها ، وكأن غرامه العنيف هو وحده الذي كان يملي عليه كل دوافع سلوكه . ويروي لنا صاحب القصة في بعض الاحيان أن السر في مسلك ترستان هو أنه قد شرب جرعة الحب ، فلم يكن له من سبيل الى مقاومة عاطفته الغلابة ، بينما نراه يصور لنا ترستان في أحيان أخرى بصورة العاشق الولهان الذي تسيره عاطفته دون أن يملك التحكم فيها أو السيطرة عليها. ومهما يكن من شيء ، فقد وقع ترستان في غرام ايزو زوجة سيده ، وان كنا لا ندري هل امتدت هذه الصلة الغرامية التي نشأت بينهما الى الاتصال الجنسي ، أم هل بقيت مجرد صلة روحية صرفة . ولكن الكاتب يذكر لنا أن الملك فاجأ العاشقين يوما وقد استلقيا أحدهما الى جوار الاخر ، وبينهما سيف مصلت يفصل بينهما ، رمزا على عفافهما وطهرهما . والواقع أن العاشقين لم يكونا محبين بمعنى الكلمة ، لان كلا منهما لم يكن يحب الاخر ، كما أن كلا منهما لم يكن يحرص على البقاء الى جوار الاخر، وانما كان كل منهما يحب الحب ، ويعمل بوحي من القدر ! ومن هنا فقد كان ترستان يرد ايزو الى زوجها الملك مارك، ولكنها لم تكن تحتمل غيابه عنها ، فكان الغرام يعاودها، ولم تكن لتقوى على مغالبة هواها ، أو التحكم في عاطفتها، أو توجيه مصيرها !

تلك ـ بايجاز ـ خلاصة قصة «ترستان وايزو» التي كانت مصدرا خصبا لمعظم روايات الحب في أوروبا، فاستلهمها دانتي ، وراسين ، وبلزاك ، وجيته ، وكلودل، وغيرهم . وربما كانت الاهمية الكبرى لهذه القصة أنها تخفي وراء غموض أحداثها ايمانا خفيا ببدعة دينية هي « الغنوسطية » ونزعة التطهير (أو التنفيس) Catharsis فنحن هنا بازاء شخصيتين معذبتين قد ابتليتا بنكبة « الحب » ، والحب ـ في شرعهما ـ هوى أليم ، أوانفعال قاتم ، فهو لا يوجه المحب نحو التعلق بأي موضوع حسي كائنا ما كان ، وانما هو يقتاده ـ من حيث لا يدري ـ نحو الهلاك أو الموت ! ومعنى هذا أن كل من يتعاطى جرعة الحب لا بد من ان يكون مصيره الى الفناء ! وتبعا لذلك فان « الايروس » في قصة ترستان وايزو ليس طفلا صغيرا ، كما كان الحال في الكثير من الاساطير اليونانية، بل هو غادة جميلة لا ترفق ولا ترحم ، فهي ما تكاد تومىء بطرف أصبعها ، حتى يجد العاشق نفسه أسيرا لها، مقيدا في حبالها ! وهذا هو السبب في أن الحب الرومانتيكي قد اقترن دائما بمعاني «النار»، و«الاحتراق»، و « الاكتواء » ، و « التلظي » ، و « التألم » و «الجراح» و « العذاب » و « الشقاء » و « الموت » ... الخ. ومن هنا فان الحب الذي كان كل من ترستان وايزو يستشعره في أعماق نفسه حينما يحدق في عيني الاخر لم يكن سوى حب للحزن والشقاء ، وكأن قد كتب على جراح هذين العاشقين ألا تبرأ ! والواقع أن « محبة الحب » عند كل من ترستان وايزو انما كانت تخفي وراءها هوى عنيفا جامحا كان يدفع بكل واحد منهما نحو التعلق بالموت ، والشوق الى الفناء . حقا انهما لم يكونا على وعي بتلك الرغبة الخفية التي كانت تملي عليهما أفعالهما ، ولكنهما في أعماق قلبيهما انما كانا يعملان بوحي من ذلك الهوى المحتوم الذي كان يسوقهما نحو الموت . وكأن هذين العاشقين المعذبين انما كانا يتمنيان في قرارة نفسيهما أن يجيء الموت فيخلصهما من مرارة الحب ، ويفتديهما من عذاب غرامهما القاتل ! وليس بدعا اذن أن تكون القوة الخفية التي عملت على استبقاء هذين العاشقين في ظلام حبهما المميت ، هي التي جعلت كاتب القصة يصطنع لغة الرموز ، فيستعير من سحر القرن الثاني عشر وأساليبه الفروسية البليغة الكثير من الاصطلاحات الرومانتيكية المؤثرة (١٣) .

والظاهر أن نجاح الكتاب الرومانتيكيين في التأثير على عواطف الجمهور الاوروبي ، انما يرجع ـ فيما يقول دي روجيمون ـ الى أن الانسان الاوروبي يستجيب للمؤثرات العنيفة ، ويؤثر الشقاء على كل ما عداه ! ومن هنا فقد لقي شعراء القرن السابع عشر نجاحا منقطع النظير ، بسبب قصائدهم الحزينة المفعمة بمعاني العذاب والشقاء والوجد والحنين والجفاء والحرقة والجواء ... الخ. كذلك أصاب الروائيون الالمان ـ من جماعة الرومانتيكيين ـ في نهاية القرن التاسع عشر نجاحا كبيرا بسبب تلك المسحة الكئيبة التي غلبت على رواياتهم، فجعلت منها تعبيرا حادا عن معاني القلق والالم والعذاب والانتحار والموت ... الخ. وربما كان في وسعنا أن نلحق بهؤلاء كتابا متأخرين مثل كيركجارد واندريه جيد ، فاننا نجد لديهما ايضا بعض أصداء لهذه النزعة الحزينة المتطرفة (أو ما يسمونه أحيانا باسم dolorisme) والسبب في انتشار هذه النزعة أن العقلية الاوروبية قد ربطت الفهم بالالم ، والوعي بالموت ، فتصورت أن الالام بصفة عامة ، والام الحب بصفة خاصة ، انما هي ميزة كبرى تصحب كل فهم عميق لحقيقة أمر هذه الحياة الانسانية . واذن فلا بد للعاشقين من أن يجتازوا تجربة الالم ، اذا كان لهم أن يفهموا يوما سر الوجود الانساني الذي يمضي حتما نحو الموت !

والواقع أن شعراء الغزل في العصور الوسطى قد اعتبروا « المرأة » أداة يسخرها القدر للتلاعب بمصير الرجال ، كما أنهم ربطوا الحب بالخطيئة متأثرين في ذلك بقول القديس بولس في حديثه عن اغراء حواء لادم : «لقد دخلت الخطيئة الى العالم بفعل امرأة ، فحق علينا الهلاك أجمعين » . ومن هنا فقد اقترن الحب لدى عشاق العصور الوسطى من أمثال هلويز وأبيلار، وايزو وترستان ، بضرب من الشعور بالخطيئة أو الاثم . ونظرا لان غرام الفرسان في العصور الوسطى كان دائما غراما محرما ارتبط بالشهوة والخطيئة والخيانة الزوجية ، فقد كان من الطبيعي أن يصحب هذا الحب الاثم ضرب من الاحساس بالذنب، وحنين قوي الى تحمل العقاب . ولما كانت « أجرة الخطيئة هي الموت » (كما ورد في الكتاب المقدس) ، فليس بدعا أن تثور في أعماق نفوس هؤلاء العشاق المذنبين رغبة عارمة في تحمل القصاص ، والوقوع تحت طائلة الموت. وهكذا عاش هؤلاء المحبون معذبين أشقياء ، تؤرقهم

(١٣) M.C. D'Arcy : « The Mind and Heart of Love ». N.Y., 1956, p. 36.

ضمائرهم ، وتقض مضاجعهم أشباح الموت ! (١٤)

أما الهوى الرومانتيكي العفيف ، فانه قد اقترن أيضا بمشاعر مماثلة من العذاب واليأس والشقاء : فقد كان أصحابه يعلمون ان غرامهم عاطفة محرمة لا موضع لها داخل نطاق رابطة الزوجية ، ومن ثم فقد كانوا يشعرون بأنه لا مخرج لهم من هذا المصير الشقي المحتوم ! وكان الشاعر المحروم يردد على أسماع غاديته المعشوقة آلاف المرات أهازيج الحب وعبارات الشوق ، لكي تعزف عنه في كل مرة ، وتلقى نداءاته المتكررة بكلمة «لا» ! وعلى حين كانت الزوجة في العصر الاقطاعي مجرد متاع يتركه الزوج في مسكنه ، كانت قلوب الرجال تحلم بالانثى الخالدة التي تدمي القلب فلا يكون له برء ! ولعل هذا هو السبب في أن الحب الاقطاعي قد ارتبط منذ البداية بمشاعر الحرمان واليأس والعذاب ، خصوصا وأن الحياة في نظر رجال العصور الوسطى قد كانت تبدو لهم دائما صراعا بين النور والظلام ، بين النهار والليل ، بين الحياة والموت ، بين الفناء والخلود ، بين اللذة والالم ... الخ . والظاهر أن تعاليم الغنوسطية والمانوية قد أثرت على عقلية الرجل الاوروبي في ذلك الحين ، فاتخذ الايروس في عينيه صورة امرأة ترمز الى العالم الخارجي من جهة ، والى الحنين الذي يملى علينا احتقار الملذات الارضية من جهة أخرى . وهكذا أصبحت « المرأة » صورة للنهار والليل ، أو رمزا للنور والظلام ، أو مركبا من الشوق الخالد والجاذبية الجنسية . ثم جاءت فكرة « اللامتناهي » فلعبت دورا هاما في هذا « الغرام الرومانتيكي » ، اذ جعلت العشاق يشعرون بأنه ليس من شأن سائر اللذات الفانية سوى أن تضاعف من آلام جراح الحب . وتبعا لذلك فقد أصبح العشاق مستعدين دائما للتنازل عن « المتناهي » ، لانهم كانوا يشعرون بأن « المتناهي » عاجز تماما عن ان يوفر لهم ما هم في حاجة اليه . ولعل هذا ما عبر عنه نوفالس حينما كتب يقول : « ان العهد الذي قطعه كل منا على نفسه لم يتبادل بيننا من اجل هذا العالم » . ثم يستطرد نوفالس فيقول : « انه حينما يستبعد الالم ، فان استبعاده دليل على ان المرء لم يعد يريد ان يحب . وأما كل من يحب حقا ، فانه لا بد له دائما من ان يظل شاعرا بالفراغ المحيط به ، كما انه لا بد له من ان يستبقي جرحه مفتوحا على الدوام » ! ويربط نوفالس الحب بالموت فيقول : « ان الحب لا يكون عذبا حقا الا في الموت . والموت يبدو للموجود الذي لا زال حيا بمثابة ليلة عرس ، وكأنما هو قلب الاسرار العذبة » ! وهكذا تمتزج لغة « الايروس الرومانتيكي » بلغة الرموز الصوفية ، فيصبح الحب بمثابة نار روحية تلتهم قلوب العشاق ، لكي توحد بينهم في عناق أثيري ، ضامنة لهم بذلك دوام ليلة العرس الى أبد الابدين !

والواقع أننا لو أنعمنا النظر الى الكثير من كتابات القديسين والصوفيين المسيحيين من أمثال القديس فرانسوا الاسيزي François d'Assise والقديسة تريزا الافيلية Thérèse d'Avila ، لوجدنا لدى هؤلاء المتصوفة والقديسين تأثرا واضحا بأغاني شعراء التروبادور ، وبمفهوم الهوى العنيف الذي كان سائدا في العصور الوسطى لدى الفرسان الاقطاعيين . ومن هنا فقد ارتبط الحب في نظر هؤلاء القديسين بالموت ، كما دخلت في صميم تعبيراتهم الصوفية ألفاظ غرامية ترتد بنا الى جو الفروسية ، والغزل ، والحرمان ، والعذاب ، والصد ، والجوى ، والشقاء ، والمأساة ، والقلق ... الخ . وحسبنا أن نتصفح تعليق القديسة تريزا على « نشيد الاناشيد » ، لكي نتبين بكل وضوح كيف ارتبط الحب في ذهن هذه القديسة بمعاني « المأساة » و « العائق » .. الخ . فهذه القديسة تتحدث في الليلة المظلمة ، وشقاء الحرمان ، وعذاب الصد ، ونزوع الحب نحو الموت ، الى آخر تلك الاصطلاحات الغرامية التي تدلنا بشكل قاطع على ان فهمها للحب الالهي قد تأثر بفهم العصور الوسطى للايروس او العشق التراجيدي العنيف . ولسنا نعدم لدى غيرها من المتصوفة المسيحيين نماذج أخرى لهذا الربط الوثيق للحب بالموت : فهذا هو القديس فرانسوا دي سال يصيح في مناجاة له قائلا : « ايه أيها الموت الذي يحيينا بحبه ! ايه أيها الحب الذي يميتنا بحياته ! » وفي موضع آخر نراه يتحدث عن الحب ، فيشبهه بفاكهة الرمان ، من حيث أنه مر عذب aigrdoux ، وكان في مرارته عذوبة ، أو في عذوبته مرارة ! ويربط القديس فرانسوا الحب بالعذاب ، فيقرر في مناسبة أخرى « انه لذة الحب قاتلة ، وأن القلب يستعذب ذلك العذاب الثمين الذي يضنيه ويحطمه ! » (١٥) .

ولسنا نريد أن نسترسل في شرح تأثر الحضارة الاوروبية بهذا المفهوم التراجيدي للحب ، وانما حسبنا أن نقرر أن روح « الايروس » قد تسربت الى العقلية المسيحية ، فجعلتها تربط الحب بالموت ، وتقرن مصير العشاق بالشقاء ، وترفض كل اعتراف بالحب في نطاق الحياة الزوجية . والحق أن تأثر العقلية الاوروبية بمفهوم « الايروس » قد جعلها تعزف عن قيود الزواج ، لكي تنشد « الحب » خارج دائرة العلاقات الزوجية ، كما حدا بها أيضا الى التعلق بمحبة الحب أكثر من تعلقها بمحبة المحبوب . وقد وصف لنا روجيمون أولئك المحبين الرومانتيكيين الذين لا يحب الواحد منهم الآخر ، بل يحب واقعة الحب نفسها ، ويحب الاحساس بأنه يحب ! واذا كان فنلون Fénélon قد قال : « ان المرء لا يحب للحب ، بل للمحبوب » ، فربما كان في استطاعتنا أن نقول عن عبيد الايروس انهم « لا يحبون المحبوب ، بل يحبون الحب » ! ولا غرو ، فان هؤلاء لا يعرفون قيمة الشخص الفردي ، وهم لا يريدون أن يكون هناك اثنان في الحب ، بل هم يتصورون في قرارة نفوسهم أنه لا بد لواحد من المحبين أن يختفي من الوجود لكي يستمر الحب ! هذا الى أن من طبيعة الايروس أنه لا يقنع بشيء ، وأنه لا يقوى على الامتلاك ، وأنه لا يعرف الشبع ، وأنه — كما وصفه أفلاطون — حركة ديناميكية لا تكاد تصل الى مرحلة حتى تعمل على تجاوزها والعلو عليها . فالايروس اذن سورة ديناميكية لا تهدأ ، وحركة ديالكتيكية لا تتوقف ، ونزوع مستمر لا يعرف الاعياء أو الكلل . وهذا هو السبب في أن عبيد الايروس لا يمكن أن ينعموا بلذة الاستقرار ، أو أن يعرفوا عذوبة الامتلاك ، أو أن يسعدوا باسعادهم لغيرهم من الناس . ولا عجب بعد هذا كله أن يكون الناس قد شبهوا الحب دائما بالنار ، وهل تحرق النار الا بحركتها المستمرة؟

(١٤) Morton M. Hunt: «Natural History of Love». Four Square, 1962, p. 166.

(١٥) St. François de Sales : « Traité de l'Amour de Dieu » , VII, 13.